المتراجعون عن المراجعات

السبت 26 أكتوبر 2013 12:10 م

د حمدي شعيب :

بينما موسى في قومه يُذكرهم بأيام الله ـ أي أيام نعمائه وبلائه ـ **فسُئل: أي الناس أعلم؟.**

فقال: أنا أعلم!.

فعتب الله عليه، إذ لم يرد العلم إليه.

فأوحى الله إليه: إن عبداً من عبادي بمجمع البحرين، ـ أي مكان التقاء البحرين ـ **هو أعلم منك.**

قال موسى: أيْ رب، كيف لي به؟، دُلَّني عليه". [1]

لقد كان موقفاً تربوياً رائعاً أن يعترف موسى عليه السلام بخطئه؛ وهو من هو، وأن يستجيب سريعاً للعتاب والمراجعة الإلهية!.

ولهذا كان الموقف الراقي؛ الذي ورثه عنه فتاه؛ يوشع بن نون؛ حينما اعترف أيضاً بخطئه أمام سيده:

"فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيه إِلا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ". [الكهف 63]

وكذلك كان اعتراف آدم عليه السلام وزوجه بمعصيتهما؛ وكذلك كانت أوبتهما السريعة:

"قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ". [الأعراف 23]

ومن هذه اللمحات من سير هؤلاء الرسل عليهم السلام؛ تصلنا رسالة اللحظة الفارقة؛ وهي أن سرعة المراجعات تعد شرطا لقبول التوبة، وشرطاً لجدية التقييم والتقويم.

سمة بشرية!:

فالخطأ ليس عيباً!.

بل هو سمة بشرية!.

ولكن العيب هو التمادي في الخطأ، وعدم الرجوع عنه؛ والخيرية دوماً لمن أسرع فتاب وراجع وصحح:

"**كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ**". [2]

أسرع ... ولُمْ نفسك أولاً!؟:

ولقد كان من التوجيهات القرآنية الرفيعة؛ أنه إذا أصاب المرء مكروه؛ فعليه أن يواجه أخطاءه، ولا يبررها، ولا يلتمس لنفسه الأعذار، ولا يهرب من المسؤولية!.

وأول خطوة في طريق المواجهة، والمراجعات النفسية للبحث عن الأسباب؛ هو أن ينتقد ذاته؛ فيفتش عن أخطائه النفسية، وعيوبه الذاتية، قبل أن يلوم الآخرين!.

وهو من أبرز الدروس التربوية؛ الذي تعلمها الجيل الأول الفريد؛ من مراجعات مصيبة أحد، والعجيب أنها نزلت ودماء الشهداء لم تزل حارة تسيل على رمال أحد:

"أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ". [آل عمران 165]

حماقاتٌ ارتكبتُها!:

ومن اللمحات التربوية؛ أن تعترف ـ ولو سراً ـ بأخطائك مع نفسك أولاً، ثم مع الآخرين!.

يقول عالم العلاقات الإنسانية (ديل كارنيجي):

(في أدراج مكتبي ملف خاص مكتوب عليه هـذا الشـعار؛ وأنا أعتبر هـذا الملف بمثابة سـجل واف للأخطاء والحماقات التي ارتكبتها. وعندما اسـتخرج سـجل أخطائي، وأعيد قراءة الانتقادات التي وجهتها إلى نفسـي، أحس أنني قادر، مسـتعينا بعب الماضـي، على مواجهة أقسـى، وأشد المشكلات إيلاماً. لقد اعتدت فيما مضى أن ألقي على الناس مسئولية ما ألقاه من مشـكلات، لكنني وقـد تقـدمت في السن، وازددت حنكة وتجربة؛ أدركت آخر الأمر، أنني وحدي المسـئول عما أصابني من سوء، وفي ظني أن كثيراً من النـاس يـدركون مـا أدركت؛ كما قال (نابليون) وهو في منفاه بجزيرة (سانت هيلانه): (لا أحد سواي مسئول عن هزيمتي، لقد كنت أنا أعظم عدو لنفسي!).

ويقول (والت ويتمان): (أتراك تعلمت دروس الحياة من أولئك الذين امتدحوك، وآزروك، وحنوا عليك؟!. أم تعلمتها من أولئك الذين هاجموك، وانتبذوك، وقست قلوبهم عليك؟!!).

يقول (لاروشفوكو): (إن آراء أعدائنا فينا؛ أدنى إلى الصواب من آرائنا في أنفسنا). [3]

كافئ أفضل المخطئين!:

من الطريف والجديد أن هذا هو الشعار المبتكر لشركة (بروجان)؛ وهي إحدى وكالات الإعلان في (ديترويت).

فقد تخسر وظيفتك وتدفع منصبك ثمناً لأخطائك؛ لكن الأمر ليس كذلك في هذه الشركة!؟.

فمنذ أربع عشـرة سـنة أدخلت (ماسـي بروجان)؛ مديرة الشركة؛ نظام جائزة (أفضل أخطاء الشهر)؛ والتي من شأنها تكريم الموظفين الـذين يعترفون بأخطائهم أمام زملائهم؛ ويحصل الفائز على مبلغ خمسـين دولاراً؛ وذلك بعد المنافسة مع أثنين من زملائه؛ وبعد تصويت موظفي الوكالة السـتون؛ في اجتماعهم الشهري؛ على أفضل الأخطاء، حتى لا يكررها غيره مستقبلاً!.

فلماذا نركز على إبداعاتنا دون هفواتنا؟!.

كل الناس يتعلمون من إخفاقاتهم أكثر من إنجازاتهم!.

ثم إن الاعتراف بالخطأ فضيلة؛ وهذه من سمات القادة!. [4]

فلماذا نخاف من أخطائنا؟!.

ولماذا نتبرأ من مخطئينا؟!.

ولماذا نتلكأ في مراجعاتنا؟!.

قفْ الآن ... وراجع نفسك!:

ومن أجمل اللمحات التربوية أن يحاسب المرء نفسه؛ وأن يداوم على تقييم وضعه!.

لأن " **الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله**". [5]

ويروى عن ميمون بن مهران قـال: (لا يكون العبـد تقيـاً حتى يحـاسب نفسه، كمـا يحـاسب شـريكه؛ من أين مطعمه وملبسه؟!).

(وقـال عمر بن الخطـاب رضـي الله عنه: حاسـبوا أنفسـكم قبـل أن تحاسـبوا، وطـالبوا بالصـدق في الأعمال قبل أن تطـالبوا وزنوا أعمـالكم قبـل أن توزنوا فـإنه أهون عليكم في الحسـاب غـدا وتزينوا للعرض الأكبر؛ "**يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ**". [الحاقة 18]

وقـال الحسن البصـري رحمه الله: أيسـر الناس حساباً يوم القيامـة؛ الـذين حاسـبوا أنفسـهم لله عز وجل في الـدنيا، فوقفوا عنـد همومهم وأعمالهم؛ فإن كان الـدين لله؛ هموا بالله، وإن كان عليهم؛ أمسـكوا وإنما يثقل الحساب على الـذين أهملوا الأمور فوجـدوا الله قـد أحصـى عليهم مثاقيل الذر؛ فقالوا : "**يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَـذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**". [الكهف 49]). [6]

العودة إلى الذات من أسباب الفرج:

وعنـدما تحـدث ابن الجوزي رحمه الله عن التوبة واسـتجابة ربنا للمخطئ هو أن يكتشف ذاته ويعرف أن الخلل داخلياً وليس خارجياً:

(فـإن المـؤمن إذا اسـتبطأ الفرج وأيس منه بعـد كـثرة دعـائه وتضـرعه ولم يظهر عليه أثر الإجابـة؛ فرجع إلى نفسـه باللائمـة وقـال لهـا: إنمـا أتيت من قبلـك ولو كـان فيـك خير لأجبت. وهـذا اللوم أحب إلى الله من كثير من الطاعات؛ فإنه يوجب انكسار العبد لمولاه؛ فلذلك تسرع إليه حينئذ أجابة الدعاء؛ فإنه تعالى عند المنكسرة قلوبهم من أجله). [7]

لماذا يسخر أينشتين؟!:

والآن ...

علينـا أن نتـذكر أن البدايـة في التغيير المجتمعي والتحـول الحضـاري الـذي ننشـده ونعيش لـه؛ هـو التغيير النفسـي والتصحيح الداخلي ومراجعة الذات:

" **إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**". [الرعد 11]

والخطـأ ليست نهايـة العـالم؛ وكمـا يقول (جيم كولنز) مؤلف (البنـاء من أجل الاسـتمرار): (القادة العظماء لا تهزمهم الأخطاء، بل يتغلبون على أخطائهم رغم فـداحتها. فأنت لست بحاجـة لأن تتخذ قرارات صائبة طيلة الوقت لكي تكون قائداً عظيماً. أنت تخطئ وتتعلم من أخطائك. وهناك نسبة خطأ مطلوبة في كل عملية اتخاذ للقرارات. من ينتظرون بلوغ الحالة المثالية ليتخذوا قرارات منزهة من العيوب لن يقرروا أبداً).

فإلى متى سنظل نتمسك بآليات ووسائل بل وشخصيات بعينها والتترس كالعادة بفقه الأزمة وأدبيات المحنة كمبررات تاريخية لتأجيل المراجعات، بل ونُجَرِّم من يطالب بها، ونشكك في انتمائه، ونتجاهل رأيه؟!.

وإلى متى نشوه المراجعات، ونرعب البعض منها بوصمها أنها مجرد جلداً للذات؟.
وننسى لماذا يسخر (أينشتين) من المتراجعين عن المراجعات: (تَعْرِيفِي لِلْغَبَاء؛ هُوَ أَنْ تُدَاوِم عَلَىَ فِعْلِ نَفْسِ الأَشْيَاء بِنَفْسِ الْطَّرِيقَةِ وَتَتَوَقَّع أَنْ تَحْصُلَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ عَلَىَ نَتَائِجَ مُخْتَلِفَة)!؟.

د. حمدي شعيب

زميل الجمعية الكندية لطب الأطفال (CPS)

عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية

E.Mail: hamdy_shoaib@hotmail.com

الهوامش:

[1] [رواه مسلم والبخاري]
[2] [رواه الترمذي]
[3] [دع القلق وابدأ الحياة: ديل كارنيجي]
[4] [المختار الإداري (Business Digest)]
[5] [سنن الترمذي]
[6] [الياقوتة ـ جزء 1 ـ صفحة 83 ـ الفصل العاشر]
[7] [جامع العلوم والحكم: ابن رجب]